فى
الميزان

حق الأمانة على المؤرخ فى هذه المرحلة من التاريخ الإسلامى أن يراجع بينه وبين ضميره طائفة من الحقائق البديهية، قبل أن يستقيم له الميزان الصادق لتقدير الرجال بأقدائهم وتقويم المناقب بقيمتها.

ومن هذه الحقائق البديهية أن الأموال التى بذلها معاوية المأجورين من حوله لم تبذل لتعريف الناس بحسناته وسيئاته كما يعرفها من لم يؤجر بمال ولم يتصل معه بسبب.

ومن هذه الحقائق البديهية أن سلطان معاوية يدخل فى الحساب حيث يؤوب الباحث إلى ذلك الزمن ليفرق بين ما يقال عن صاحب السلطان وما يقال عن رجل يحاربه السلطان فى سمعته وذكراه.

ومن الحقائق البديهية تواطؤ الزمن على إقرار ما قيل وتكرر وطال وقوعه فى الأسماع حتى لتكاد تنفر من تغييره لو عرض لها فيه شىء من التغيير، وحتى لتكاد تعجز عن النافذ إلى الحقيقة لو رغبت فى ذلك التغيير لسبب من الأسباب، وقلما تعرض هذه الأسباب لمن لا يعنيهم تمحيص ما يقال فى الساعة الراهنة فضلا عما يقال ويعاد منه مئات السنين.

ومن الحقائق البديهية أن المحاباة تأتى بتوافق الطبائع كما تأتى بالغرض والرشوة، فلا يسهل على الإنسان نقد صفة يعلم أنه متصف بمثلها، واستنكار وسيلة يعلم أنه لا يستنكرها ولا يأبى النجاح إذا توسل بها إليه.

ومن الحقائق البديهية أن المحاباة تأتى من جهات لم تخطر للمنتفع بمحاباتها على بال.

فالدولة الأموية فى الأندلس أنشأت للشرق الإسلامى تاريخًا لم يكتبه مؤرخوه ولا يكتبونه على هذا النحو لم أنهم كتبوه، وجاءت تلك الدولة الأندلسية بمؤرخين من الأعلام ينصبون الميزان راجحًا لكل سيرة أموية لا

يقصدونـها بالمحاباة ولكنهم لا يستطيـعون أن يقصدوها بالنقـد والملامة لأنهم مصرفون بهواهم عن هذا الطريق.

من هؤلاء أناس فى طبـقة ابن خلدون، يضع معـاوية فى ميـزانه فيكاد يحسبه بقية الخلفاء الراشـدين ويتحمل المعاذير له فى إسناد ولاية العد إليه مع فسوقه وخلل سياسته وكراهة الناس لحكمه حتى من أبناء قومه.

ولا يهولن قارئ التاريخ اسم ابن خلدون فيذكره وينسى الحقائق البديهية التى لا تكلفه أكثـر من نظرة مستقيمـة إلى الواقع الميسر لكل ناظر فى تواريخ الخلفاء الراشدين وتاريخ معاوية.

فما فى وسع ابن خلدون أن يخرج من هذه التواريخ بمشابهة بعيدة تجمع بين معاوية والصديق والفاروق وعثمان وعلى فى مسلك من مسالك الدين أو الدنيا وفى حـالة من أحوال الحكم أو المعـيشة، وأنه لـفى وسع كل قارئ أن يجد المشابهـات الكثيرة التى تجمع بين مـعاوية ومروان وعبـد الملك وسليمان وهشام، فلا يفترقون فيها إلا بالدرجة والمقدار، أو بالتقديم والتأخير.

وإذا كان هذا شأن ابن خلدون على جلالة قـدره فقل ما شئت فى سائر المؤرخين وسـائر المستمـعين للتواريخ، ؤ الزمن مـشارقة شهـدوا زمان الدولة ومشـارقة لم يـشهدوه، ومـن مغـاربة عاشـوا فى ظل تلك الدولة، وتعلقت أقدارهم بأقدارها، وأيقنوا أنهم لا ينقـصون منها شيئًا ثم يستطيـعون تعويضه من الأندلس بما يغنيهم عنه، ومـا زال العهد بالمنبت عن أرومتـه أن يلصق بها أشد من لصوق القائمين عليها.

***

إذا روجعت تلك الحقائق فى ميزان التـاريخ فقد ذهب من الكفة كل ما زيد عليـها فى إبان الـدولة وكل ما علق بهـا من تواطء الزمن وتكرار العـادة وكسل السامع من مشقة المراجعة وانتزاع الفكر مما ألفه ولم يألف سواه.

لقد تمهدت لمعاوية أسباب لم تتمهد فى عصره لأحد غيره من قبل الإسلام، وفى صدر الإسلام إلى أيام عثمان.

ولم يكن مفرطًا أو عاجزًا فلم يضيع ما تمهد له بجعله لا تؤمن عاقبتها، أو بتقصير عن الفرصة فى أوانها.

وكان له دهاء وحلم، وكان فيه طموح واعتداد بالنفس وسمة من سمات الرئاسة.

وكان له من كل أولئك قدره الذى أعانه على مقصده كما أعين بغيره.

فكان فى يديه من المال والجند وسلطان الولاية ما لم يكن فى أيدى أحد من نظرائه ومنازعيه، ولولا ذلك لما أفاده دهاؤه مع أعوانه من الدهاة، لأنه لم يغلبهم بعقل غالب ولم يصرفهم عن مقصدهم إلى مقصده، بل خدمهم وخدموه، ولو لم يكن عنده ما يطلبونه لخدموا غيره أو نازعوه على سواء، وربما نازعه بعضهم على رجحان.

وكان له حلم أوشك أن يحرمه عزة الرئاسة، ولكنه حلم من لا يغضب وليس بحلم من يغضب ويملك عنان غضبه، فسيان أن يركب غضبه بعنان أو بغير عنان، فإنه فى غنى عن قوة الساعد مع ميطة لا تثور ثورة الجماح فى كل حين.

وكان له طموح إلى السيادة، ولكنه طموح الألفة والعادة، ورثه مع جاه الأسرة ولم يخلق فيه بتلك الخليقة "الحيوية" التى يطبع عليها العصاميون، فكأنما هى جزء من التركيب وليست وجاهة من وجاهات البيت العريق يطلبها كما يطلب الميراث.

وإذا وزنت قدرة معاوية بميزان النجاح حصل من نجاحه فى كفة الميزان حاصل قليل يهون شأنه مع أثقال الكفة الأخرى من الجهود والشواغل والهموم.

فقد أراد الملك له ولبنيه، ولم يرده لبنى أمية أجمعين، لأنه فرق بينهم ما اجتمع وأغرى أناسًا منهم بأناس ولم يعمل عمله إلا ليتركه من بعده لعشيرته من بنى سفيان.

فلم يخلفه من ذريته غير يزيد، ,ذهب يزيد فى عنفوانه بداء الجنب فلم يخلفه أحد من ولديه.

وتبعه معاوية فى عاقبة ولى عهده الذى خرق الخوارق من أجله أعظم جداً من سمعاته فى توريثه الملك وتوريث أبنائه من بعده. فقد جنت عليه تلك الخليقة الأموية فلم يعرف من البر بالأبناء غير الإملاء لهم فى النعمة والمتاع، وما كان يزيد ليقصد فى مطاعنه ومناعمه وهو يظر إلى قدوة سبقته إلى تلك المظاعم والمناعم، وسبقته إلى تدبيرها له كلما استعصت عليه، ولم يم تكن من الشهوات التى يقضيها الآباء للأبناء.

إن ذات الجنب مرض من أمراض الكبد، وأمراض الكبد قضاء حتم على المنهوم بطعامه والمفرط فى شهواته، ,قد صنع معاوية ليزيد هذا وصنع له ذاك: صنع له عدة النعمة والمتعة ووضع له عدة الملك والسلطان، وما يحسب له من هذا دون ما يحسب من ذاك، وكلاهما لا يحسب فى ميزان رجيح.

***

وخرج معاوية من الملك بالأيام التى قضاها فى نعمته وثرائه، ولا نقول فى صولته وعزه، فقد كان يذل لكل ذى بيعة منشودة ذلا لم يصبر من بايعوه على مثله، ولو وزن ما احتمله فى سبيل بيعتهم وما احتملوه فى سبيل طاعته لكان ما احتمله هو أثقل الكفتين.

أما تبعته العامة فى الملك فأمر جسيم لا تعد له جسامة عمل فى عصره، لأنه نكص بالملك خطوات، وكان فى ميسوره أن يتقدم به خطوات تزيد عليها، مع ما بين الخطوة الناكصة والخطوة المتقدمة من بون بعيد.

لم يكن فى ميسوره أن يديم على الدولة خلافة كخلافة الصديق أو خلافة الفاروق.

ولكن كان فى ميسوره أن يجنبها الكسروية والهرقلية وأن يجعل للخلافة أثرًا باقيًا فى ولاية الأمر، إن لم يصمد على سنة الراشدين لم يصمد على سنة الملك العقيم.

ولو أنه أنشأ هذا الملك فى الدولة الإسلامية والناس لا يعرفون غيره لخف نصيبه من اللوم وهان حق التاريخ وحق العالم الإسلامى، والعالم الإنسانى، عليه.

غير أن الناس عرفوا فى زمانه فارقًا شاسعًا بين ولى الأمر الذى يتخذ الحكم خدمة للرعية وأمانة للخق والخالق، وشريعة لمرضاة الناس بالحق والإنصاف، وبين الحكم الذى يحاط بالأبهة ويجرى على سنة المساومة ويملى لصاحبه فى البذخ والمتعة ويجعله قدوة لمن يقتدون به فى السرف والمغالاة بصغائر الحياة.

كان الرجل من النصحاء يدخل عليه كأنما يبكته فيسلم عليه بالملك ولا يسلم عليه بالخلافة.

وتتابع عليه فى أيامه الأولى من يقول له: السلام عليكم أيها الملك!. فكان يكر الاسم ولا ينكر السمة، إلى أن تنازعه الخيار بين ترك السمة أو التمادى فيها، فتمادى فيها وقال جهرة لمن حوله من الراضين أو المنكرين: نعم أنا أول الملوك!

وتبعته فيما شجر بعده من خلاف توازن تبعته فى هذا الخروج بولاية الأمر من ورع الخلافة إلى أبهة الهرقلية والكسروية.

فما كان من المعقول، ولا من طبائع الأمور، أن تبذر فى الأرض كل تلك البذور من جراثيم التفرقة ثم تسلم الدولة من عقابيلها أو تظل

التفـرقة سنداً لصـاحب الأمر مـئات السنين كـما كانت سنداً لمعـاوية سنوات معدودات.

تبعات يحسب حـسابها العسير إن كان للتاريخ جـدوى يحرص عليها، وكان لشرف الذكر وزن يقام.

وليست جـدوى التاريخ هنا كلمة مـدح تنقص أو تزاد، وإنما جدواه أن يصان الذكر عن الابتذال وهو أشرف ما تملكه الإنسانية من تشريف أبنائها فى الحياة وبعد الممـات، فلا يباح عرض الإنسانية لكل من يملـك طعامًا يملأ به البطون أو ملا يملأ به الجيوب، ,لا يختلط الحق بالباطل ثم تذهب الحيلة فيه وتثوب العـقول والضمائر إلى التـسليم، ويتساوى الجوهر والطلاء فـى ميزان الخلود والبقاء.

ومعاوية بن أبى سـفيان فى هذا الميزان، لا يخرج منه مغـبونًا ولا غابنًا للحقيقة من بعده، وإنما تحـسب له قدرته بتقدير، ويعطى من أثر قدرته، ومن أثر نيته، ما هو به حقيق.

وقد عمل بتلك القـدرة ما أفاد وأفاد قومه وأفاد الأمم التـى تولاها فيما تستفيده من قـرار الدولة و"ضبط" الأ/ور. وذلك حق القدرة الذى لا حاجة معه إلى اللجاجة فى أمر النيـة، فلو أن أحداً أراد أن يمحو من سجله كل ما عمله لنفـسه ولبنيه لما بقى فى ذلك السجل لعـمل واحد تطول فيه الـلجاجة حول النيات.

ونعود فنقول أنها قدرة لا ترسل على إطلاقها بغير تقدير، وأن تقديرها الحق أنها غاية القدرة إلى الشوط القصير.

لقد كـان قويًا لا مشاحـة فى وصفه بالقوة على مـثالها، ومثـالها أنك تصوغها فى خـيالك على صورة من الصور، فتحضرك صـورة الجمل الصبور ولا تحضرك صورة الأسد الهصور.